

مصطلح الالتزام في النقد الإسلامي المعاصر: دراسة في المفهوم ومجالات الاستخدام

سيد سيد عبد الرازق*

مقدمة:

تعدُّ مسألة المصطلح على درجة كبيرة من الأهمية، نظراً لارتباط المصطلح في صياغته، وحمولته الدلالية، بالإطار الاجتماعي والحضاري، الذي ولد فيه، وخضوعه، كذلك في صياغته تلك، للمرجعية الموجهة لحركة الصياغة، ومن ثم يظلُّ متلبساً بأمشاج من تلك الدلالة المرتبطة بإطار نشأته في أبعادها الاجتماعية والحضارية، والمرجعية التي رافقت تلك النشأة، وتكمن الإشكالية حينئذٍ في حال انتقال المصطلح إلى مجالات اجتماعية، وحضارية تنطلق من مرجعية مغايرة، وبذا تنقلب مسألة الصياغة المصطلحية من كونها مظهرًا للتوجه الذاتي، والخصوصية الحضارية المعبرة عن الهوية، إلى كونها معبراً للغزو، والتبعية البغيضة، وضياح الذات.

ومصطلح الالتزام في النقد المعاصر، وليدُ بيئة ثقافية، ومناخ حضاري مغاير لمحيطنا الثقافي والحضاري، ومن ثمَّ فقد انتقل المصطلح إلى الأدب العربي محملاً بدلالته التي اكتسبها من السياق الثقافي والحضاري لنشأته، فظل عالماً بتلك الدلالات المختلفة باختلاف المذاهب الأدبية، وهى دلالات غريبة عن حضارتنا وثقافتنا، وعندما يتم توجيه الأدب بمقتضياتها، يصبح في عزلة عن واقعنا، وهمومنا، ومشكلاتنا الحقيقية. ولذلك سعى كثير من النقاد، والأدباء إلى التأسيس الإسلامي للأدب، نقداً وإبداعاً، ليكون تعبيراً حقيقياً عن واقعنا، وحياتنا، وهمومنا، ومشكلاتنا.

* أستاذ الأدب والنقد المساعد، كلية البنات الإسلامية بأسسيوط/ جامعة الأزهر. بريد إلكتروني:

وفي دائرة هذا التأصيل، جرى استخدام مصطلح الالتزام، لدى الناقد الإسلامي، في سياق دلالي جديد يتمشى مع المرجعية الإسلامية، التي تتوجه بمقتضاها حركة التأصيل الإسلامي للأدب في صياغة المفاهيم الأدبية والنقدية، ومن ثم تحول مصطلح الالتزام إلى الدلالة على التمسك بمتطلبات المرجعية الإسلامية في الصياغة الأدبية، تعبيراً عن التجارب الإنسانية الخاصة والعامة.

وقد ثار جدلٌ بين النقاد الإسلاميين حول جدوى استخدام المصطلح بعد استرفاده من محيطات مضادة، وما إذا كانت هناك ضرورة لاستخدامه داخل سياقات الأدب الإسلامي، وهو مصطلح مستكفٍ بنفسه، ولا يحتاج، لدى بعض النقاد، إلى مصطلحات أخرى تحدد عمومته، فالأدب الإسلامي يحمل ضمناً معنى الالتزام تجاه المرجعية الإسلامية في مبادئها الكلية.

سعيًا إلى تحديد الموقف الصحيح من مصطلح الالتزام، وجدواه في الإجراء النقدي الإسلامي، كان تركيز هذا البحث على محاولة حصر المجالات السياقية لاستخدام المصطلح، وتحليل دلالاته عبر تلك المجالات لدى كثير من النقاد الإسلاميين، للكشف عن الدلالات الجديدة للمصطلح، تلك التي تواكب متطلبات المرجعية الموجهة لحركة التأصيل الإسلامي للأدب وتتجاوب مع معطياتها.

قام البحث باستقراء مجالات استخدام المصطلح، لدى النقاد الإسلاميين، وفحص دلالاتها غير معزولة عن سياقها الذي وردت فيه، فهو منهج استقرائي تحليلي، يقوم على الربط بين المصطلح، وسياق استخدامه، ومرجعيته.

وحرص البحث كذلك على إبراز الدلالة الإسلامية للمصطلح عند النقاد، وتأكيدها، ومن ثم بيان أهمية استخدامه في المعايير النقدية، والضرورات والقيم العملية التي يؤديها المصطلح على الرغم من استرفاده. وقد وضع البحث شرطاً لاسترفاد المصطلح لكي يؤدي غايته، وحذّر في الوقت نفسه من سلبات استرفاد المصطلح،

وأشار إلى بعض دلالاته السلبية، وعلّق هذه وتلك، على درجة الوعي بالمصطلح، والمتطلبات المرجعية التي ينطلق منها الناقد.

أولاً: المصطلح في سياقه الحضاري والمذهبي

جرى استخدام مصطلح الالتزام في ميادين النقد الأدبي المعاصر، وأوساطه المختلفة، باختلاف المذاهب والمبادئ التي تقوم عليها المذاهب النقدية الحديثة، فكان لكل مذهب نقدي من تلك المذاهب، موقفه المبني على فهمه الخاص لمصطلح الالتزام في ضوء مبادئه التي يقوم عليها وأهدافه ومقاصده التي يسعى إليها، ومن ثمّ اختلف الموقف من مصطلح الالتزام، واختلف كذلك مفهومه لدى هذه المذاهب التي جرى في محيطها استخدام هذا المصطلح.

١. دلالة المصطلح في المذهب الواقعي الاشتراكي:

فالواقعية الاشتراكية تحيل دلالة المصطلح إلى الانحياز التام للتعبير عن الهموم، والقضايا الاجتماعية للطبقة العاملة "البروليتاريا"؛ إذ يُعدُّ تقريرُ اللجنة المركزية للحزب الشيوعي إدراكَ الأديب للحقيقة الموضوعية أساساً للابتكار الفني بعيداً عن خيالاته الذاتية الشخصية، ومن ثمّ فإنّ أساس المعايير النقدية للأداء الفني في الأدب الواقعي، يكمن فيما ينطوي عليه التصوير الفني من تدعيم الحياة الاشتراكية،^١ ويطلب لينين من الكتّاب صراحة، اتخاذ موقف منحاز، وأن يخدموا الفكر الماركسي بالاهتمام بالطبقات الفقيرة،^٢ ومن ثمّ فمفهوم الالتزام لديهم يضيق عن استيعاب حرية الفرد في التعبير عن ذاته، وخير ما يعبر عن ذلك ما أعلنته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي من ضرورة التشدد في معاملة الذين لا يلتزمون بالواقعية الاشتراكية، وأن كل عمل خارج عن ذلك إنما هو ضد الأخلاق.^٣

^١ عيد، رجاء. فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨٦م،

ص ١٢٦.

^٢ المرجع السابق، ص ١٢٧.

^٣ المرجع السابق، ص ١٣٧.

٢. دلالاته في المذهب الوجودي:

يحاول سارتر أن يجعل من الالتزام مفهوماً ذاتياً محضاً تمثيلاً مع فلسفته القائمة على اعتقاد أن وجود الإنسان هو الجوهر الحقيقي المطلق، فهو يصدر عن ذاتية الفرد، على النقيض مما تقول به المادية الجدلية.^٤

ومن ثم تنصرف دلالة الالتزام الوجودي إلى اتخاذ الأدب وسيلة للتعبير عن الرؤى الفردية، والذاتية المعتمدة في رؤية الوجود على ما يتصوره الوجدان، في انشغال كامل عن الواقع الموضوعي، وهنا يفتح المجال على مصراعيه أمام دعاة المادية للانقضاض على الوجوديين، بدعوى "أن الوجودية تعمل على قطع كل صلة للأفراد بعضهم ببعض"،^٥ فيرد الوجوديون بأن "الالتزام في أصله فردي، ولكنه يتحول تلقائياً ليصطبغ بلون جماعي؛"^٦ لأن الملتزم عندما يكشف ذاتيته؛ أي وجوده الفردي، فإنه في الوقت نفسه يكشف معه وجود الآخرين، لأننا ندرك أنفسنا في مواجهة غيرنا، لذا فالملتزم يلتزم لنفسه، وللآخرين،^٧ ومن ثم يتحقق الالتزام لديه، بالكشف عن موقف الذات من الوجود.

هكذا يتلون مفهوم الالتزام بلون الفلسفة التي يقوم عليها المذهب الأدبي، ولسنا معنيين هنا بتتبع دلالة هذا المفهوم وأبعاده وتحولاته لدى تلك المذاهب، بقدر العناية بتأكيد الرابطة القوية بين مفهوم الالتزام، والمبادئ الفلسفية يقوم عليها المذهب، ودور ذلك في صياغة المصطلحات النقدية، وبذا يتجلى أن المذاهب الأدبية على وجه العموم، وكل ما يتوالد في محاضنها من مفاهيم، ومصطلحات، ومناهج، وإجراءات هو وليد سياق فلسفي، وحضاري خاص.

^٤ المرجع السابق، ص ١٤.

^٥ المرجع السابق، ص ١٤٣.

^٦ المرجع السابق، ص ١٤١، ١٤٣.

^٧ انظر: المرجع السابق، ص ١٤١، ١٤٣.

٣. استيراد المناهج الغربية في النقد العربي:

وغير بعيد عن الإدراك أن الخطاب النقدي العربي، منذ بدايات القرن العشرين جرى في مضمار النقد الغربي، فأخذ، على استحياء، في استيراد مفاهيمه، ومصطلحاته ومناهجه ومذاهبه، فشكّل الوعي بهذه الحقيقة دافعاً للبحث عن مظان التميز، والخصوصية الحضارية والثقافية، فكان في منتصف القرن العشرين الاهتمام إلى صياغة مصطلح الأدب الإسلامي، بمعنى انبثاق الخطاب الأدبي، في جانبيه النقدي والإبداعي، من مرجعية إسلامية، بوصفها قاعدة للانطلاق في ميادين النقد، والإبداع تعبيراً عن كل ما يتصل بحياة الإنسان، الفردية والاجتماعية، في جميع ميادينها.

٤. استرفاد المصطلح في السياق الإسلامي:

غير أن الاهتمام إلى معالم التميز والخصوصية لدى الناقد الإسلامي، لم يكن ليمنعه عن الاتصال بالآخر، واستيعاب مفاهيمه، والاستفادة بها في سياقه الخاص، شريطة أن يتم ذلك بتحويل وجهتها، وضبطها وفق مبادئ المرجعية الإسلامية، ومقاصدها، ومقتضياتها.

وقد جرى في سياق تلك الاستفادة من الآخر استخدام مصطلح الالتزام في أفق النقد الإسلامي نظرياً وتطبيقياً، وقد كان الناقد الإسلامي خلال هذا الاستخدام على وعي بحقيقة استرفاد المصطلح، وطبيعة المضمون الذي ينطوي عليه بسبب ما علق به خلال نشأته، واستخدامه في أجواء فلسفية، وحضارية مختلفة، ومن ثم أخذ في تأصيل هذا المصطلح، ومحاولة تجريده مما علق به من مضامين مغايرة أو مناقضة، للمبادئ، والمقاصد التي يقوم عليها التصور الإسلامي للوجود، تلك التي تشكل مرجعية للتأصيل الإسلامي للأدب.

ثانياً: تأصيل المصطلح إسلامياً

وفي دائرة تأصيل المصطلح، دار الحوار النقدي حول مصداقيته وجدواه في التوظيف النقدي، داخل دائرة الإسلامية، فمصطلح الأدب الإسلامي لدى بعضهم "لا

يفتقر إلى صفة، ووصف الأديب بأنه مسلم يعني شيئاً من الالتزام، إضافة إلى أن مصطلح الالتزام مصطلح مستعار محبوب اقتضته المرحلة الأولى في الدعوة إلى إسلامية الأدب بوصفه مدخلاً للربط بين الأدب والدين، والآن قد استنفد أغراضه، ولم يعد هناك ما يسوغ استخدامه؛ إذ يجعل الأدب الإسلامي حلقة في سلسلة الآداب الجاهلية المعاصرة، الوجودية، والماركسية، ثم هو يعكس قصوراً في فهم الأصالة الأدبية من خلال التعبير عن واقعنا بمصطلحات غريبة.^٨

وعلى الرغم من أن مصطلح الأدب الإسلامي وافٍ بنفسه حقاً، ولا يحتاج إلى وصف آخر، وأن مصطلح الالتزام مصطلح مستعار، ومعاً بمضمون (إيديولوجي) يصعب عزله عنه، ومن ثم فهو ذو تأثيرات سيئة في ميدان التداول النقدي الإسلامي؛ إذ إنّه بتأثير مضمونه الوافد، يوضع لدى بعض النقاد الإسلاميين مقابل الحرية مع إشارتهم إلى أنه ليس نقيضاً لها،^٩ غير أن المقابلة على هذا النحو تشي بالتأثيرات الوافدة؛ لأنّه في دائرة الإسلامية يصعب الفصل بين الحرية والالتزام؛ إذ لا توجد حرية دون ضوابط، ومن ثم فإن المضمون الإسلامي يشمل المتقابلين دون أن يناقض بينهما، فهما متمازجان ولا تصح المقابلة الضدية بينهما، بل إن منهم من يحاول توجيه المصطلح وجهة اجتماعية، فيصبح الالتزام عنده تضحية بالذات من أجل الآخر،^{١٠} وبذا يصبح، بوجه ما، صدى للواقعية الاشتراكية، ومن ثم فالالتزام عنده يحد من حرية الأديب، ويضيق حدود الإبداع. والمضمون الإسلامي المراد هنا بعيد تماماً عن تلك التأثيرات، وعلى الرغم من ذلك فإن الحكم على المصطلح باستنفاد أغراضه، وعدم جدواه في التداول النقدي، لا يصح فيما نرى إلا من خلال استعراض مجالات استخدام المصطلح عند بعض النقاد الإسلاميين، ليتضح على ضوء ذلك وجه الحاجة

^٨ الهاشمي، محمد عادل. تجارب ومواقف في الأدب الإسلامي، بيروت: دار المنارة، ط ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص ٦٩. بتصرف يسير.

^٩ انظر على سبيل المثال:

- بيلو، صالح آدم. من قضايا الأدب الإسلامي، جدة: دار المنارة، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ٦٧.

- على، أحمد محمد. الأدب الإسلامي ضرورة، القاهرة: دار الاعتصام، ط ١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، ص ٣٥.

^{١٠} الرفاعي، عبد العزيز أحمد. الأديب المسلم بين الالتزام والإبداع، مجلة الدائرة، المملكة العربية السعودية: عدد ٤، سنة ١٦، رجب شعبان رمضان ١٤١١هـ، ص ٧١.

إلى المصطلح، وإن كانت له دلالة إسلامية، أم إنه يستعمل عندهم بدلالاته التغريبية، ومن ثم يصح فيه قول الهاشمي السابق: "إنه يعكس قصوراً في فهم الأصالة الأدبية." ويمكن ملاحظة جريان حركة التأصيل الإسلامي للمصطلح عبر مجالي التنظير، والتطبيق على النحو التالي:

١. بدايات التأصيل:

وقد بزغ هذا المصطلح في دائرة الإسلامية مبكراً في حديث سيد قطب عن الأدب الإسلامي؛ إذ يقول: "وحين يتم التكيف الشعوري في النفس البشرية بالتصور الإسلامي الإبداعي للحياة، فإن هذا التكيف يبدو في كل ما يصدر عن النفس، لا على وجه الإلزام والإرغام، لكن على وجه التعبير الذاتي عن حقيقة هذه النفس،... وحينما أقول إن الأدب الإسلامي أدب موجه، وإن له منهجاً يلتزمه، فلا أعني بذلك التوجيه الإلزامي على نحو ما يفرضه أصحاب التفسير المادي للتاريخ، إنما أعني أن تكيف النفس البشرية بالتصور الإسلامي للحياة هو وحده سيلهمها صوراً من الفنون غير التي يلهمها إياه التصور المادي، أو أي تصور آخر."^{١١} وهو في هذا يفرق بين الإلزام، والالتزام، بأن الأول إرغام وإجبار، والثاني طوع واختيار؛ أي إنه صدور عفوي عن الذات التي تكيفت وفق معطيات المذهبية الإسلامية، اعتماداً على توافق هذه المعطيات مع حقيقة الفطرة، والانطلاق، في حدود المنهج الذي يفرضه هذا التكيف الفطري، والنفسي بين الذات، والمرجعية الإسلامية، وعلى هذا فهو التزام منهجي تمنحه تلك المرجعية، فهو ليس التزام موضوع، ولا التزام غاية محدودة، ولا التزام معنى أو شكل، وإن كان ذلك كله يستمد وجوده، وطبيعته، وخصوصيته من المنهج، إلا أن المنهج لا يفرض من ذلك توجهاً خاصاً أو مساحة محدودة، أو لوناً معيناً، وإنما يترك هذه وتلك لذاتية الأديب ومكوناته وحدود تجربته وخبرته وظروفه الخاصة، في حدود التوافق مع

^{١١} قطب، سيد. في التاريخ فكرة ومنهج، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٦م، ص ١٤ وما بعدها.

أسسه المذهبية العامة، أو بمعنى أوضح يتم الانبثاق الإبداعي عن هذه الأسس بسبب تكيف النفس الإنسانية بها، فيجئ هذا الانبثاق فيضاً ذاتياً منضبطاً بالمنهجية الإسلامية.

ويتفق محمد قطب مع شقيقه، حول هذا المعنى للالتزام ويؤكد ضرورته ووجوبه، ويضيف التشديد على عدم توجيه الأدباء من خلال هذا المصطلح إلى تسجيل الظواهر الاجتماعية المستقلة عن حياة الفرد، وإلا تحولت التجارب إلى (مانيكان)، كذلك الذي يعلق عليه الخياط بضاعته بعد إنجازها، فلا روح فيه. وليس معنى الالتزام أن يتحول الأدب إلى مناقشات فلسفية بحثية، بل على الأديب أن يعيش مشكلات عصره، وينفعل بها من خلال منظوره الخاص،^{١٢} فكأنه بذلك يؤكد في دائرة الالتزام الإسلامي على العفوية، وعدم الانصراف إلى الدوائر المحدودة من حيث المجالات، مع العناية بالروح الأدبية التي تكمن في العناصر الجمالية.

٢. الالتزام ليس قيداً:

اهتم نجيب الكيلاني اهتماماً شديداً بهذا المصطلح، واعتنى به عناية كبيرة، وأفرد له بعض الصفحات في كتابه (الإسلامية والمذاهب الأدبية)^{١٣} وذلك تحت عنوان: (بين الحرية والالتزام)،^{١٤} وفيه يذكر أن الدين لم يأت إلا لإسعاد البشرية، ومن ثم فإن الأنشطة الإنسانية يجب أن تقصد هذه الغاية، والأدب بوصفه أحد هذه الأنشطة "يجب أن يلتزم نفس الخطة، وأن يلعب دوره الخطير من أجل إسعاد الفرد والمجتمع... وبهذا الفهم المعقول يبدو لنا الالتزام وكأنه ليس نقيضاً للحرية، وعدواً لها، وإنما هو شيء منظم لها، وصمام أمان يحرس انحرافاتها، ويبرز لها معالم الطريق، ويقودها إلى مشارف السعادة الحقيقية، قد يسميه البعض أدباً ملتزماً، وقد يسميه الآخرون أدباً هادفاً، ونحن نسميه وجهة نظر إسلامية في الأدب."^{١٥}

^{١٢} قطب، محمد. مقدمة مسرحية البعد الخامس لأحمد رائف، القاهرة: مطبعة الزهراء، ط ١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٧م، ص ٢٦. وهذه الصفات السلبية التي حذر منها محمد قطب هي توابع الإلزام في دوائر المذاهب الوضعية.

^{١٣} صدرت الطبعة الأولى من كتاب الإسلامية والمذاهب الأدبية عام ١٩٦٢م.

^{١٤} الكيلاني، نجيب. الإسلامية والمذاهب الأدبية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص ٢٨.

^{١٥} المرجع السابق، ص ٢٨، ٢٩، ٣٠. بتصرف.

ثم يتحدث عن مسؤولية الإنسان المسلم، وهي مسؤولية شاملة للقول والفعل والحركة والسكون، وكل الأفراد مسئولون "من هنا كان الأديب المسلم ملتزماً بمنهج شامل في الحياة يعبر عنه بالقول والعمل، ويتمثله في وحدته مع نفسه، وفي اندماجه مع أفراد مجتمعه،^{١٦} ثم يشير إلى طبيعة هذا المنهج الذي يلتزم به المسلم، واتساعه بمعنى عدم انحصاره في نظرية اقتصادية مغلقة، ولا في مدرسة فلسفية مغلقة، ولا يرتبط بأية بقعة على وجه البسيطة دون غيرها... فهو يتسع لبني البشر جميعاً، وللحياة كافة."^{١٧}

٣. الإلحاح على مسألة الحرية:

ويعود الكيلاني إلى طرح المسألة من جديد؛^{١٨} إذ يذكر أن الأدب الإسلامي محكوم في نظريته إلى الحياة والكون والمخلوقات بالتصور الإسلامي، والالتزام العقدي، وأنه يجعل من الفن والالتزام كياناً واحداً،^{١٩} وأن الالتزام ينبع من الإيمان^{٢٠} مما يجعل التجربة تجيء وفق شروطه، وضوابطه التي لا تتعارض مع الحرية، فهو التزام نابع من الذات، ومن القناعة، ومن المعتقد الأصيل الذي يعيش الإنسان في رحابه، ويستظل بظله،^{٢١} وهذا هو ما يتفق مع مفهومه العام للحرية، ذلك الذي طرحه فنياً في روايته (قاتل حمزة)،^{٢٢} وهو المفهوم الإسلامي الصحيح للالتزام، الذي أشار إليه من قبل سيد قطب، وشقيقه محمد قطب، التزام متطلبات - وليس التزام غاية- المنهج الإسلامي في

^{١٦} المرجع السابق، ص ٣١.

^{١٧} المرجع السابق، ص ٣١ بتصرف.

^{١٨} راجع الكيلاني، نجيب. في:

- آفاق الأدب الإسلامي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م.

- رحلتي مع الأدب الإسلامي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م.

^{١٩} الكيلاني، نجيب. آفاق الأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص ٤٧.

^{٢٠} المرجع السابق، ص ٦١.

^{٢١} المرجع السابق، ص ١٢٥، ١٢٦.

^{٢٢} انظر:

- حنوت، ماهر. قاتل حمزة، جريدة البلاغ الكويتية، عدد ٤٤، ٩ مارس ١٩٧١م.

- الكيلاني، نجيب. رحلتي مع الأدب الإسلامي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص ١٢٧ وما بعدها.

صياغة التجربة الأدبية؛ أي إنه التزام منهج، وقد أشار الكيلاني إلى هذا المعنى مرات في كتبه، وحواراته،^{٢٣} بل إنه يشير صراحة إلى أن الالتزام "منهج وأسلوب عمل، وفق تصور معين".^{٢٤}

ثم يضيف الكيلاني إضافات قيمة إلى المعنى المنهجي للالتزام؛ إذ يؤكد على حتمية الالتزام، واتصاف الآداب به في كل العصور؛^{٢٥} لأنه حتى في حالة انعدام المرجعية، وهو أمر يكاد يكون مستحيل الحصول، فإن الأدب، أياً كان، لا يمكن أن يتجرد من القواعد اللغوية، والجمالية في دوائر الأشكال الأدبية، مما لا يخرج عن كونه نوعاً من الالتزام تجاه اللغة بقواعدها، ودلالاتها الأصيلة،^{٢٦} وتجاه الأشكال الأدبية المتعارف عليها.

وأخيراً يعبر الكيلاني تعبيراً رائعاً عن عفوية الالتزام الإسلامي بمعناه المنهجي، وتلقائيته، وشموله؛ إذ يقول: "فالالتزام بمعناه الإسلامي الواسع هو الطاعة، والطاعة الحقيقية إيمان وفرح في قلب المؤمن، وسلوك مطابق لحقيقة العقيدة، وكل ما يتعلق بها، الالتزام إذن عمل يبدأ بالنية الصادقة، والعزم الذي لا يتزعزع، وينطلق من ممارسات واقعية في مختلف جنبات الحياة، إنه وئام بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين الآخرين، وهو يضم تحت جناحيه قيم الحياة الإسلامية، وقوانينها وأحكامها، وتصورات المؤمن لما يحيط به من كون وسنن، وحيوان، وجهاد، ونبات، ويمتد ذلك التصور ليربط الحياة الدنيا بالآخرة، ومرجع ذلك كله هو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ".^{٢٧}

^{٢٣} الكيلاني، نجيب. رحلتي مع الأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص ٥٦، ٢١٤، ٢٢٢ وما بعدها. وانظر: - الكيلاني، نجيب. تجربي الذاتية في القصة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص ١٤٣ وما بعدها؛ إذ يكرر المعاني المذكورة.

^{٢٤} الكيلاني، نجيب. مدخل إلى الأدب الإسلامي، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية، سلسلة كتاب الأمة، ١٤٠٧هـ. ص ٧٦، ٨١، ٨٢؛ إذ يؤكد على أن الالتزام ليس نقيضاً للحرية.

^{٢٥} المرجع السابق، ص ٧٦.

^{٢٦} المرجع السابق، ص ٧٦، ٧٧.

^{٢٧} المرجع السابق، ص ٧٩.

ثم يضيف "الالتزام هنا هو الطاعة، والطاعة تجد النور الذي يهدي، والوسيلة التي توصل، والبيانات التي تقنع، والتجربة التي تؤكد، واليقين الذي ينداح سعادة كبرى بين الجوانح.^{٢٨}

وعلى أساس من هذا المفهوم المنهجي للالتزام، واستكشاف قيمه العملية، جرى النقاد الإسلاميون في محاولة تأصيل المصطلح، فحكمت صالح^{٢٩} يرى أنه موازنة تامة بين القيم الجمالية، والمعنوية ذات الارتباط بالإسلامية؛ إذ لا تصح التضحية بالقيم الجمالية على حساب الالتزام بالمضمون؛^{٣٠} أي موافقته لمقتضيات المذهبية الإسلامية، وإنما لا بد للقيم الجمالية أن تكون كذلك، ومن ثم فإن الالتزام هو الذي يحقق التوازن بين هذين الطرفين.

٤. خصوصية المفهوم الإسلامي:

ويتوصل محمد الرابع الندوي^{٣١} من خلال استقراءه لنماذج الأدب في صدر الإسلام إلى المفهوم الذي قرره النقاد الإسلاميون من قبل، وهو ما عبر عنه بقوله: "الالتزام بالطبيعة الإسلامية هو المبدأ الوحيد للأدب الإسلامي؛"^{٣٢} أي إنّه يردّه إلى المفهوم المنهجي للالتزام، وعلى ذلك فإن هذا المفهوم هو الفاصل بين التجربة الأدبية في دائرة الإسلامية، وغيرها من الدوائر.

أما عبد الباسط بدر^{٣٣} فيستخدمه بمعناه المنهجي؛ أي الالتزام. بمتطلبات المرجعية الإسلامية في الصياغة والتعبير، وهو بهذا يدل على ضرورة المصطلح في المعيار النقدي،

^{٢٨} المرجع السابق، ص ٨٠، ٨٤، ٨٥.

^{٢٩} أديب إسلامي عراقي له دراسات أدبية ودواوين شعرية متعددة منها: مواقف وتأملات، دراسة عن الموت في الشعر الجاهلي، الحب للأرض والإنسان (ديوان شعر)، نحو آفاق شعر إسلامي معاصر (دراسة وشعر).

^{٣٠} صالح، حكمت. دراسة فنية في شعر الشافعي، بيروت: عالم الكتب، ط ١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص ١٨.

^{٣١} هو أحد أعضاء ندوة العلماء بالهند، وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ولا أعرف له غير كتاب الأدب الإسلامي وصلته بالحياة، وكتابه: تاريخ الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام.

^{٣٢} الندوي، محمد الرابع. الأدب الإسلامي وصلته بالحياة، القاهرة: دار الاعتصام، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ٥٢.

^{٣٣} بدر، عبد الباسط. مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، جدة: دار المنارة، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ١٠٦،

وهو ما صنعه أحمد بسام ساعي؛^{٣٤} إذ فرّق على أساسه بين الأديب الملتزم، والمنضوي، "فالأول هو الصادق مع نفسه سعيّاً وراء جزاء كبير، أكبر من كل جزاء، وطمعاً بحياة أخرى سرمدية، لا تقارن بها حياة الأرض مهما أغرته وتبرجت له، أما الانضوائي فهو الذي ارتضى لنفسه أن ينضوي تحت فكرة دنيوية، أو راية بشرية، أو حزب سياسي لمصلحة مؤقتة، رهبة أو رغبة، للخروج بالمنفعة، والسلامة، السريعتي الزوال، ومن السهل على الانضوائي، وهذه حاله، أن يتزلق بعد ذلك في هوة الانفصام بين حياته وإنتاجه، ولذلك كانت الازدواجية أو الانفصام سمة واضحة من سمات هذا العصر المادي، ولا سيما في الأدب الغربي"^{٣٥} فكأنّ الالتزام الإسلامي هو الذي يقي التجربة الأدبية، ويقي الأديب شر الازدواج، وتلك قيمة عملية أخرى من قيم الالتزام، غير أن بسام ساعي يستخدم المصطلح (الالتزام) إضافة إلى ذلك في الدلالة على التمسك بالقيم الجمالية في صياغة التجربة الأدبية،^{٣٦} ولا مانع من ذلك في المجال التطبيقي، وإن كان ذكره، نظرياً، شيئاً بدهياً؛ إذ التشديد على القيم الجمالية وارد في الأسس العامة للمذهبية الإسلامية، إضافة إلى كونه غاية من غايات الأدب الإسلامي.

ويعبر عبد الرحمن الباشا تعبيراً دقيقاً ومحددًا عن الدلالة على خصوصية مصطلح الالتزام في مفهومه الإسلامي، فهو عنده "التزام بالإسلام وقيمه، وتصوراته، وتقيد بمبادئه ومثله وغاياته"^{٣٧} ثم ينطلق في تأصيل المصطلح من معناه اللغوي إلى معناه الاصطلاحي الأدبي، معرجاً على نشأة المصطلح وسياقاته الحضارية، وصولاً إلى ما أشار

^{٣٤} ساعي، أحمد بسام. الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، جدة: دار المنارة، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ٢٤، ٢٥، ٩٠.

^{٣٥} المرجع السابق، ص ٢٤، ٢٥، ومما هو جدير بالذكر هنا هو بكاء أمل دنقل بحسرة لموت عبد الناصر في قصيدته لا وقت للبكاء، وقد بكى بالفعل، وهو يلقيها، ولكنه عاد بعد وفاة عبد الناصر بست سنوات ليهجوه هجاء مرّاً ساخرًا. انظر:

- قميحة، جابر. التراث الإنساني في شعر أمل دنقل، القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ط ١، ١٤٠٧هـ-

١٩٨٧م، ص ١١٦، ١١٧. وهو مثل واحد من أمثلة الازدواج التي تعج بها الحياة الأدبية لدى هؤلاء المنضوين.

^{٣٦} ساعي، أحمد بسام. الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، مرجع سابق، ص ١٠٤.

^{٣٧} الباشا، عبد الرحمن رأفت. نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، القاهرة: ط ٣، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص ١٢٣.

إليه من الدلالة الإسلامية للمصطلح، بوصفها دلالة تمثل خاصية من خصائص الأدب الإسلامي، مؤكداً أن الأدب الإسلامي ولد على الالتزام، وعاش ملتزماً قبل أن يولد المصطلح في سياق المذاهب الغربية، وهو التزام أرست قواعده الآيات الكريمة: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْنَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَقْلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٤-٢٧) مشيراً إلى مظاهر الالتزام في شعر صدر الإسلام.^{٣٨}

وفي سياق تأصيل المصطلح، وإبراز الخصوصية الإسلامية في دلالة يضع الباشا حدوداً تفصل الدلالة الإسلامية للمصطلح عن دلالة في المذاهب الغربية، منتهياً إلى: "أن الأدب الإسلامي يلتزم بقيم ربانية، ويدعو إليها ويبشر بها، أما الأدب الواقعي الاشتراكي فهو ملتزم بالواقع كما يحدده الحزب الشيوعي، وأما الأدب الوجودي فهو ملتزم بموقف الفرد، وحرية في اتخاذ الموقف الذي يختاره دون ضابط أو رابط."^{٣٩} وهو خلال ذلك يكشف عن سلبات حجة للالتزام في مفهوم الواقعي الاشتراكي، والوجودي، بينما تنأى الدلالة الإسلامية للمصطلح عن تلك السلبات.^{٤٠}

ويشير حسن الأمrani إلى أن المصطلح على الرغم من أنه أثار كثيراً من الجدل لدى بعض المنظرين؛ لأنه "مصطلح غربي، إلا أنه يمكن قبوله مع بعض التجاوز؛ إذ إن هناك ثلاثة مظاهر متفاوتة للأدب الإسلامي هي:

^{٣٨} لا يسائر الباحث من يذهبون إلى محاولة البحث عن جذور تاريخية للمصطلحات الحديثة، ومن ثم محاولة قراءة تراثنا من خلال مصطلحات لا يعرفها؛ لأن هذا المسلك، وإن لم يخلُ من فائدة، فإنه قد يضيء على دلالة المصطلح في سياق نشأته، وظروفه الحضارية قدرًا من المصادقية، والقبول، ومن ثم يسوِّغ لدى البعض نقله على علته، فالأولى هو فهم المصطلح في سياق نشأته، ثم تفرغه من الدلالات التي امتلأ بها عبر رحلته من النشأة إلى التمام، وتعبته بالدلالة الإسلامية، وهذا ما يقصده بالتأصيل، بدلاً من تلبس المفاهيم، وإقحام المصطلحات الحديثة على تراثنا، وقد لا يستجيب لها فيوسم بالقصور، وقد تسهم تلك المصطلحات بما تحمل من دلالة حديثة في سوء القراءة، وانعدام مصادقية التأويل، وفساد الحكم.

^{٣٩} الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، مرجع سابق، ص ١٤٧.

^{٤٠} المرجع السابق، ص ١٣٧، ١٤٧.

- مظهر الأثر: أي أن يتأثر الأديب بالإسلام، أو ببعض الألفاظ القرآنية أو ببعض أحاديث رسول الله ﷺ، وهذا أمر يشترك فيه كل من ينتمي إلى الحضارة العربية الإسلامية، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم.

- المظهر الثاني: هو أدب الالتزام أو أدب الدعوة أو الموعظة، وهو الذي شهدناه على عهد رسول الله ﷺ مع حسان بن ثابت رضي الله عنه، وغيره من الصحابة رضي الله عنهم؛ إذ يتحول الأدب إلى أداة للدعوة أو أداة للجهاد.

- المظهر الثالث: حين يتحول الأدب إلى رؤية؛ أي إن الإسلامية تظهر في كل موضوع من الموضوعات، وفي كل ميدان من الميادين، وهذا أعلى درجات الأدب الإسلامي، وطبعاً حين نتحدث عن أدب الرؤية لا نلغى أدب الدعوة، حيث يصبح أدب الدعوة جزءاً متساوياً معه.^{٤١} ومن الواضح هنا أن الأمراني يوجه المصطلح صراحة، نحو اتجاه معين من اتجاهات الإسلامية، وهو أدب الدعوة، لكنه لا يغلق المصطلح عليه، بل يمدّه لاتجاه أرحب، وأفسح حين تصبح الإسلامية رؤية توجه حركة التجربة الشاملة بجميع أبعادها، التي تشمل ضمن ما تشمل أدب الدعوة الذي يعد جزءاً، بل أكبر جزء وأهمه في مساحة التجربة الأدبية لدى الأديب المسلم، أي إنه يتحدث عن المفهوم المنهجي للالتزام، ومن ثم لا نرى مبرراً لإطلاق المصطلح باتجاه أدب الدعوة من الناحية النظرية، لأن ذلك حاصل بطبيعة الارتباط المنهجي الشامل الذي يوجه حركة الذات المبدعة في جميع المجالات، لذا فإن صرف المصطلح نظرياً نحو أدب الدعوة، هو أشبه بالإلزام الخارجي، وهو حينئذ لا يخلو من شبهة القسر والإكراه، إضافة إلى أنه قد يفتح الباب للتوجيه القسري باتجاهات أخرى، وذلك بالطبع لا يعني عدم التحديد النقدي لأبعاد الالتزام في مساحة التجربة، ومن ثم استخدامه في مجال أدب الدعوة، لكن مرد ذلك هو تحقيقه العملي في مساحة التجربة الأدبية أي النص، ولعل أهم ما أشار إليه الناقد هنا هو أن الالتزام مستويات متعددة ومتفاوتة بقدر ارتباط الأديب بالأسس المذهبية التي توجه حركته، واتخاذها مرجعية،

^{٤١} الأمراني، حسن. جريدة العالم الإسلامي، العدد ١٣٥٧، سنة ٣٠، ٢١ ذو القعدة ١٤١٤هـ - مايو ١٩٩٤م، ص ٥ بتصرف. (حوار معه)

والوعي بمتطلباتها، وهو ما يمكن أن يستفاد من محاولة بيلو، على نحو ما سيتبين، في جعله للالتزام درجتين، ويبدو أن هذا المفهوم في طريقه إلى الاستقرار في وعي الناقد المسلم؛ إذ يقسم العريني روايات الدكتور الكيلاني إلى مستويات ثلاثة بحسب ارتباطها بالمذهبية الإسلامية وهي:

أ. مستوى البعد عن الالتزام الإسلامي، "ويشمل الأعمال الروائية التي بعدت بها الشقة عن الصورة الإسلامية لأدب الكيلاني"^{٤٢} من مثل قصة (ليل الخطايا والربيع العاصف).

ب. مستوى السمة الإسلامية الغالبة، ويشمل أكثر نتاج الكيلاني "حيث نجد السمة الغالبة هي التوجُّه الإسلامي، وتكاد لا تخفى هذه السمة في كل رواية من هذه الروايات، ففيها حضور طيب للالتزام الإسلامي، أو على الأقل، عدم خروج كبير عليه، ومن هذا النوع: حمامة سلام، الطريق الطويل، مواكب الأحرار، طلائع الفجر" وغيرها كثير من روايات الكيلاني.

ج. المستوى المتميز، وفي هذا المستوى ترتفع درجة الالتزام الإسلامي.^{٤٣}

ثم يشير إلى بعض الروايات التي تدخل في هذا المستوى من مثل "عمالقة الشمال، نور الله، ليالي تركستان" ثم يتبعه بشرح بعض المواقف الروائية التي تمثل هذا المستوى من الالتزام مشيراً إلى أن هذه الروايات لا تخلو من ملحوظات في سماتها المميزة، وبذا يبدو الناقد كما لو كان يحاكم الشخصيات الروائية على أساس من منطق الالتزام السلوكي والإيماني، وهو خلط وقع فيه الناقد؛ لأن الشخصية الأدبية لها منطقها الخاص المحكوم بالسياق الروائي، وقد يكون الانحراف داخل العمل الروائي، لدلالة خاصة يقصدها الكاتب، وهناك فرق كبير بين التزام الكاتب الروائي، والتزام الشخصية الروائية. وانحراف الشخصية جزئياً أو كلياً داخل العمل الروائي، لا يعني أبداً سلب

^{٤٢} العريني، عبد الله صالح. مستويات الالتزام في روايات نجيب الكيلاني، مجلة الأدب الإسلامي، العدد ١، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ص ٨٧.

^{٤٣} المرجع السابق، ص ٨٧.

صفة الالتزام من الكاتب ما دام ملتزماً بالرؤية الإسلامية، وغايات السعي البشري التي تتحدد في ضوء تلك الرؤية، وهو ما أطلقنا عليه التزام المنهج لدى النقاد الإسلاميين.

ومن الواضح أن الناقد هنا غير معني بدلالة هذا الفهم لمصطلح الالتزام، ومن ثم فهو يعالجه بطريقة تبعية، بينما الدلالة المنهجية للمصطلح لا تقبل هذا التبعية؛ فالأديب يكون ملتزماً أو غير ملتزم، وليس بين الأمرين من وسط، وإنه لمن الخلط البين أن نجعل ضمن مستويات الالتزام في روايات الكيلاني، مستوى البعد عن الالتزام الإسلامي، وهو يمثل انتهاكاً لخصوصية المصطلح، وجوراً على أديب تشهد أعماله، بعمق التزامه، ومنهجيته الإسلامية القائمة على الوعي بمراجعته الدينية، وواقع النفس، والمجتمع البشري.

٥. الامتداد بالمصطلح من التنظير إلى التطبيق:

ومن المفهوم المنهجي للالتزام في دائرة الإسلامية ينطلق عماد الدين خليل؛ إذ يشير إلى أن "مفهوم الإسلام للالتزام الفني: أن يمتلك الفنان، أولاً، تصوراً شاملاً متكاملًا صحيحاً للكون، والحياة، والإنسان، يوازيه انفتاح وجداني دائم، وتوتر نفسي لا ينضب له معين إزاء الكون، والحياة، والإنسان... ومن بعد هذا يجيء الالتزام، عفويًا متساوفاً، مناسباً، علاقته بالعطاء الفني لا تقوم مطلقاً على القسر، والتكلف، والإكراه.. ولا تعترف أبداً بالمدرسية والوعظية والمباشرة.. علاقته علاقة العيون الزرقاء بما يخرج به على حقول الربيع العطشى من ماء فرات.. علاقة التربة الطينية الخصبة الحمراء بما تغطي به وجه الأرض من بحار لا حدود لها من السنابل الخضراء".^{٤٤} فالعفوية في الالتزام تتحقق من امتلاك التصور الإسلامي إضافة إلى الإحساس الفني تجاه الكون، والحياة، والإنسان، فهو ينبع إذن من باطن التجربة. بمقتضى تحقق القناعة الذاتية لدى الأديب في معانقة التجربة، وصياغتها، وإلا فإن تكيف النفس بمعطيات المذهبية الإسلامية، واستيعاب أبعادها دون امتلاك الموهبة الأدبية لا يمكن أن يصنع الشخصية الأدبية.

^{٤٤} خليل، عماد الدين. في النقد الإسلامي المعاصر، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٧١ م، ص ٨٩.

ويحاول عماد الدين خليل أن يمد مفهومه النظري إلى دائرة التطبيق العملي في مقاربته لأشعار جلال الدين الرومي، ومحمد الحسناوي، ورواية عمالقة الشمال لنجيب الكيلاني؛ إذ يشير إلى أن "الشعر حصان جموح، وأن التجربة الشعرية هي تجربة هيمان غير عقلائي...^{٤٥} ومن ثم فهو غير ملتزم أبداً إلا أن يأوي إلى خط الإيمان... ولذا فإن عبقرية الرومي تكمن في قدرته الفذة على تطويع تجربته المتدفقة من وراء الوعي، والشعور، والتعقل... ولوي عنقها واستخدامها لما هو أكبر، رؤيته الدينية الشاملة، وإيمانه العميق... وبذا فقد منح شعره ميزة القدرة على الالتزام، وعدم السماح للتخلق الشعري بالهيمان غير المسؤول في وديان المعاني، والتفجرات، والصور، والأفكار... ليس ثمة فوضى... ليس ثمة تخطيط... ليس ثمة ضرب في غير هدف على الإطلاق.. إن التزام الرومي الإسلامي ليلتدئ في كل مثوية من مثوياته، وفي كل بيت من أبياته... إنه يعرف كيف ينظر إلى العالم، وهو يكتوي بحر التجربة الملتهبة، فلا ينصهر ويخرج عن دائرة الالتزام."^{٤٦}

فهو يشير في هذا المقطع إلى القيمة العملية للالتزام على صفحة التجربة، تلك القيمة التي تتمثل في الانضباط والغائية، ومن ثم فلا فوضى، ولا تخطيط، إضافة إلى أنه التزام شامل لكل جزئية من جزئيات التجربة، فهو بمثابة "الدم الذي يتفجر في أوردة عطاياها الشعري، وشرائنها، ينبثق عفويًا صافياً حلوًا من باطنها، ويتخلق معها؛ لأنه يصدر عن الرجل الذي يعيش التجربة، ولا يدعيها... وفرق نوعي كبير بين أن يأتي الالتزام من فوق، لكي يضبط التجربة بقلبه الصارم، ورؤيته الحادة، وبين أن يتدفق من باطن التجربة، ويجري في أوصالها، وهي تتخلق كما يجري الدم النقي في شرايين الأجنة."^{٤٧} ثم يعرج من خلال منهج تحليلي على أبعاد الالتزام في شعر الرومي على مستوى الشكل والمضمون.^{٤٨}

وينتقل في قراءته لشعر الحسناوي إلى بيان القيم العملية للالتزام من جهة أخرى، وهي: توسيع مجالات التجربة، وعدم تناقض الحركة الدائبة للأديب المسلم مع مفهومه

^{٤٥} تبدو هذه المقولة كما لو كانت صدى لفكرة سارتر عن الشعر والالتزام.

^{٤٦} خليل، عماد الدين. خطوات جديدة في النقد الإسلامي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م،

ص ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨. بتصرف.

^{٤٧} المرجع السابق، ص ١٠٨. بتصرف.

^{٤٨} المرجع السابق، ص ٣١٣ وما بعدها، ١٢٨ وما بعدها، ١٣٤ وما بعدها، ١٦٠ وما بعدها، ١٦٧ ما بعدها.

للالتهزام، فـ"ما دام الأديب المسلم يكتب شعراً فهو لا يقف في مكان واحد... وهو بهذا يمنحنا (الشاهد) على أن الالتهزام في الشعر الإسلامي ليس رتابة، وغطية، وسكوناً... ولكنه تنوع، وإبداع، وحركة دائمة، في الزمان والمكان... على السطح وفي الأعماق."^{٤٩}

ويلاحظ في مقارنته لرواية عمالقة الشمال أن الأديب الروائي نجيب الكيلاني استطاع توزيع لمساته الإسلامية، ورؤاه الإيمانية على جميع مساحات الرواية دون سرد أو تكديس، وعبر أجواء، وسياقات مناسبة؛ إذ تجيء "هذه اللمسات، وتلك الرؤى استمراراً طبيعياً للخطوة أو المناخ الروائي... يتناغم معهما، ويتجاوب ويظل، من ثم، يحمل حيويته، وتعبيريته الفنية، وقدرته على التأثير."^{٥٠} ثم يشير إلى أن الالتهزام في الرواية يتحرك على مستويين: مستوى العمل الفني بكامله بصفته رواية إسلامية معاصرة، تعالج (فنياً) موضوعاً إسلامياً، ومستوى اللمسات الإسلامية المكثفة والمنبثة هنا، وهناك، تأكيداً لحقيقة إسلامية، وتعميقاً لموقف إيماني،^{٥١} ثم يشير إلى عدم التكلف،^{٥٢} ويؤكد على البعد الاجتماعي في دائرة الالتهزام الإسلامي، مشيراً إلى أن الكيلاني وضع في روايته بعض الخطوط، واللمسات عن المسألة الاجتماعية التي تؤرق الوجدان البشري.^{٥٣} وأخيراً يشير عماد الدين إلى بعض القيم العملية للالتهزام في رواية الكيلاني؛ إذ تحقيق التوازن بين العام والخاص، وبين القيم الجمالية، والموضوعية.^{٥٤}

وعلى هذا فإن عماد الدين قد امتد بالمصطلح (الالتهزام) من دائرة الممارسة النظرية إلى دائرة التطبيق النقدي؛ إذ أشار إلى بعض القيم العملية للالتهزام، واتخذ من المصطلح معياراً نقدياً لقياس أبعاد الامتدادات الإسلامية في صياغة التجارب على جميع

^{٤٩} المرجع السابق، ص ١٨٣.

^{٥٠} المرجع السابق، ص ٢٣٢.

^{٥١} المرجع السابق، ص ٢٣٢ بتصرف يسير.

^{٥٢} المرجع السابق، ص ٢٣٧.

^{٥٣} المرجع السابق، ص ٢٤٠.

^{٥٤} المرجع السابق، ص ٢٤٨.

مستويات البناء الأدبي بجناحيه: الفكري، والجمالي، ومن ثم فقد وضع يده على أبعاد الالتزام في كل جزئية من جزئيات العمل الفني.

وضمن كشفه عن أبعاد الإسلامية في الرواية يقول: "ولا ينسى الكيلاني أن يضع في روايته بعض الخطوط واللمسات عن المسألة الاجتماعية التي تؤرق الوجدان البشري، والتي يحسب لها الموقف الإسلامي ألف حساب."^{٥٥} وذلك على الرغم من أنه لم يشر صراحة في المفهوم النظري للالتزام إلى البعد الاجتماعي؛ لأنه لا يوجد فاصل حقيقي في المضمون، والمشكلات، والقضايا، والأفكار بين الفرد، والمجتمع، فالأول لا يمكن إلا أن يكون جزءاً من الثاني، والموقف الإسلامي إنما ينظر إلى هذه المسألة على أساس من هذه الحقيقة، وتدعيماً لها في الوقت نفسه، ومن ثم فإن ربط الالتزام الأدبي بالمذهبية الإسلامية على مستوى التنظير النقدي يعني، ضمناً، التزام الأديب تجاه المجتمع بالدرجة نفسها التي يلتزم بها تجاه ذاته، وبذا تتحقق عفوية الالتزام تجاه المجتمع، لا فرضه من الخارج، ولهذا لا يصح نظرياً توجيه الالتزام تلك الوجهة الاجتماعية؛ لأن التوجيه حينئذ سيكون من خارج ذات الأديب، إضافة إلى أنه يجعل من البعد الاجتماعي في الالتزام، وهو فرع فيه، جذراً يزاحم به الجذر الأصلي في الالتزام، وهو المذهبية الإسلامية، ومن ثم تضيع الفروق بين القاعدة، والفرع. بما يؤدي إلى خروج الحركة عن غايتها، ومن هنا فقد أحسن عماد الدين حينما لم يشر إلى البعد الاجتماعي في الالتزام الأدبي على المستوى النظري، ولا بأس بالتأشير النقدي في دائرة التطبيق على البعد الاجتماعي بوصفه من أبعاد الالتزام الإسلامي، إن أمكن ذلك من خلال النص، بشرط أن يكون تناول وفقاً للمفهوم الإسلامي، لا قصراً للمسألة على تلك المساحة المحدودة في تناولات المذاهب الوضعية؛ لأن ذلك سيقود التجربة الأدبية في دائرتها الإسلامية إلى (التصادي) مع التجربة الأدبية في دوائر تلك المذاهب الضيقة، إضافة إلى أنه يقود إلى تشابه الإسلامية في هذا الجانب مع المذاهب الوضعية، على الرغم من وضوح تباينها عن تلك المذاهب.^{٥٦}

^{٥٥} المرجع السابق، ص ٢٤٠.

^{٥٦} على الصعيد الفكري شارك عماد الدين خليل في إبراز تميز المعالجة الإسلامية للمسألة الاجتماعية، انظر: كتابه:

مرة أخرى يشير عماد الدين خليل إلى بعض القيم العملية للالتزام،^{٥٧} فهو الخيط الذي يشدّ التعبير الجمالي المؤثر إلى التصور الإسلامي للوجود، ومن ثم فلا بدّ من اعتماده وسيطاً ضرورياً، ومع ذلك فإنّ الدعوة إليه لا تستمد وجودها من ضروراته الأدبية فحسب، وإنّما من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والسوابق التاريخية لجيل الرواد ومن تبعهم بإحسان،^{٥٨} ولكن يتوجب أن يكون التزاماً مرناً، وإلا فإنه القيد الذي يغلّ العمل الأدبي، والجدار الذي يقف بمواجهة الإبداع،^{٥٩} فهو سلاح ذو حدين في الأول القريب منهما يتحول الإبداع إلى تقرير علمي رتيب، ومباشرة مملّة، أما حده الثاني فيتوجب أن يتجاوز المباشرة، إنّ على مستوى اعتماد اللغة بوصفها أداة، أو على مستوى تنفيذ الرؤية بوصفها منظوراً يعتمد الوسائل الجمالية، والتعبيرية، كافة، ليصل من خلالها إلى مرتبة الإحسان.^{٦٠}

وعلى هذا فإن عماد الدين خليل يؤكد المفهوم المنهجي للالتزام في الإسلامية، ذلك المفهوم الذي تصبح التجربة في إطاره تمخضاً تلقائياً عن التمازج الحيوي في باطن الذات المبدعة بين المقدرة الإبداعية التي تمتلك مقومات الإبداع الأدبي كافة، والتصور النابع من المذهبية الإسلامية الشاملة، ذلك التصور الضارب بجذوره في عمق اليقين الذاتي، حتى أصبح جزءاً من بنية الذات، إلا أنّه غير منفصل عن مرجعيته الكامنة في المنظومة المذهبية التي يستمد منها قوته، وتوجيهه للذات، ومن ثمّ يقود إلى قيم عملية في صياغة التجربة.

- مقال في العدل الاجتماعي، بيروت: مؤسسة الرسالة.

- وبخه بعنوان الرؤية الإسلامية والماركسية للعدل الاجتماعي، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة: عدد ٢٧، ص ٣٩. وذلك عقب المحاولة الرائدة لسيد قطب في كتابه: العدالة الاجتماعية في الإسلام. القاهرة، ط، دار الشروق.

^{٥٧} خليل، عماد الدين. مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

^{٥٨} المرجع السابق، ص ٨٢. وهو يقصد بالمقوم القرآني للالتزام الآيات الكريمة، قوله تعالى: ﴿وَالشَّعْرَةَ يَنْعِمُهُمُ الْقَارُونَ﴾ (٣٣) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٣٤) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿ (الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧)

^{٥٩} المرجع السابق، ص ٨٤.

^{٦٠} المرجع السابق، ص ٨١ بتصرف.

ويستخدمه مصطفى عليان^{٦١} في دراسته النظرية، بمعناه المنهجي؛ أي الالتزام في "الأهداف، والأخلاق، والأشواق"^{٦٢} وكافة تمخضات التجربة وسائر العناصر المكونة لها، بالتصور الإسلامي، غير أنه يستخدمه من الناحية التطبيقية في اتجاهات متعددة، حيث يقيدته بالاحتوى الفكري، وما يتعلق به من تصورات وقيم.^{٦٣} أي إنه التزام تجاه المضمون، كما يطلقه نحو التوجه الدعوى في الأدب،^{٦٤} أو بمعنى التمسك بعنصر الوعي في صياغة التجربة،^{٦٥} أو بوصفه سمة للتجربة الإسلامية في الأدب،^{٦٦} لكنه يجعل من كل ذلك خطوطاً في فضاء الحرية الإسلامية الرحبة، بمقتضى الارتباط الأساس الذي يوجه كل هذه الأبعاد بين الأديب، وعقيدته؛ إذ إن الأديب الملتزم بعقيدته التزاماً فطرياً، يجعل الحق، والنقاء، والسمو، والنظافة، والخير، قيماً عفوية في سلوكه، لا قيوداً جبرية،^{٦٧} ومن ثم فهي لا تتعارض مع الحرية، ولا مع الحدود، والقوانين الإسلامية التي تحكم حركة المجتمع، والحياة الإسلامية، فكأن عليان إذن يستخدم المصطلح في المجال التطبيقي^{٦٨} في اتجاهات عدة، ولا مانع من ذلك تطبيقياً، بينما هو يتمسك نظرياً بالمفهوم المنهجي للالتزام، أي أن يجيئ تناول الأديب، أياً كان مجاله، متسقاً مع التصور الإسلامي،^{٦٩} ومن هنا فهو يؤشر في المجال التطبيقي على بعض القيم العملية للالتزام،

^{٦١} ناقد إسلامي صدر له حتى الآن كتابان في هذا المجال: مقدمة لدراسة الأدب الإسلامي، ونحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده. إضافة إلى بعض المقالات في مجلة الأمة القطرية.

^{٦٢} عليان، مصطفى. مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي، جدة: دار المنارة، ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ١١. وقد أخذنا معناه وما بين القوسين من مفرداته، وانظر كذلك ص ١٧، ٢٦؛ إذ يستخدم المصطلح بالمعنى المذكور، ولكن من خلال تعبيرات أخرى.

^{٦٣} المرجع السابق، ص ١٧.

^{٦٤} المرجع السابق، ص ١٨.

^{٦٥} المرجع السابق، ص ١٥.

^{٦٦} المرجع السابق، ص ٥١.

^{٦٧} عليان، مصطفى. طبيعة الالتزام في الأدب الإسلامي، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية، مجلة الأمة، العدد ٤٢، السنة ٤، جمادى الآخر ١٤٠٤هـ، ص ٣٤.

^{٦٨} انظر: عليان، مصطفى. مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي، مرجع سابق، وهو الذي اعتمدنا عليه في استنباط هذه الاستخدامات للالتزام.

^{٦٩} عليان، مصطفى. طبيعة الالتزام في الأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣٤.

حيث الوقوع على طائفة من التوازنات^{٧٠} بسبب الالتزام في بنية التجربة، إضافة إلى ضبط التجربة فلا يعمل الأديب على هواه، وإنما من خلال ضوابط؛ لأن الإبداع لم يكن في يوم من الأيام عملاً مجانياً.

ثالثاً: تأثيرات وافدة في سياق التأصيل

١. بدايات التأثير:

يقدم الكيلاني توضيحات ذات قيمة وأهمية في المعالجة الإسلامية للمصطلح، من مثل ترتيب الالتزام على المسؤولية، وعمومها لجميع الأفراد، وشمولها لحركة الإنسان المسلم على جميع المستويات، وربطه للالتزام بالمنهج الإسلامي، وإشارته إلى شمول هذا المنهج، والأخذ به، والتمثل له بصفة شاملة تبدأ من باطن النفس إلى التعامل مع الآخرين، والأشياء، ومع ذلك فإنه دخل إلى الموضوع مدخلاً لا يخلو من تأثير بالمضمون الغربي للمصطلح، فهو يضع بداية الالتزام مقابل الحرية، ثم يشير إلى التوافق بينهما بصيغة لا تخلو من رنة استبعاد، كما لو كان الأمر تقريباً بين متباعدين فحسب. ثم إنه حينما ربط المصطلح (الالتزام) بالمضمون الإسلامي (المنهج) لم يشأ أن يجعل هذا الوصل مباشرة، بل جعله من خلال غاية، حددها مسبقاً هي السعادة، فالالتزام عنده التزام غائي، وليس منهجياً، وهو مدخل خطر له لدفع الممارسة النقدية الإسلامية إلى الخلط والتداخل مع المفاهيم، والمذاهب الوضعية، وبخاصة أنه ترك مدلول مصطلحه الغائي (السعادة) بإطلاق دون كشف أبعاده الإسلامية، إلا إشارة عابرة إلى ربط الإسلام للسعادة الدنيوية بالسعادة الأخروية، واقتران متعة الروح بمتعة الجسد،^{٧١} وبذا يمكن توجيه الأدب الإسلامي وجهات مادية، أو روحية غير إسلامية، تنطوي تحت

^{٧٠} عليان، مصطفى. مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص ٩٨، ١٠٠.

^{٧١} الكيلاني، نجيب. الإسلامية والمذاهب الأدبية، مرجع سابق، ص ٢٨.

هذا المفهوم للسعادة، أو على الأقل يتشابه مع هذه الاتجاهات، ومن ثم ينحرف عن منهجه، وغايته معاً.

كما أن المفهوم الغائي للالتزام ما زال مسيطراً عليه، ومتلبساً به،^{٧٢} وهو ما يؤخذ عليه؛ لأنه مع تأكيد المعنى المنهجي للالتزام لا ضرورة للحديث عن الغاية؛ لأنه قد يؤدي إلى خطأ في الفهم، ما قد يضع حدوداً أمام حركة الأديب.^{٧٣} لذا فمن الأفضل التركيز على الالتزام تجاه المذهبية الإسلامية، والغايات بعد ذلك تأتي ثمرة طبيعية لهذا الالتزام؛ لأن الغائية مبدأ أساس للحركة في المذهبية الإسلامية، ومن ثم فإن الحديث عنها هنا، على ما له من سلبيات في دائرة التداول النقدي، هو تكرار غير مسوّغ.

وعلى الرغم من استيعاب الكيلاني للمفهوم الإسلامي، وتطبيقاته العملية في ميادين أدبية متعددة، نأخذ عليه تقييده أحياناً للالتزام بأنه التزام مضمون، أو أن يعطف التزام المضمون، على التزام التصور،^{٧٤} والحق أنه إذا صح ذلك بالنسبة للأديب الذي يلتزم من غير شك مضموناً يعبر عن تجربته في إطار مرحلته، وظروفه التي يعيشها، فإنه لا يصح بالنسبة للأدب الإسلامي بوجه عام؛ إذ إنه لو كان كذلك، لسقط في دائرة الجمود، والتقليد، كما حدث للأدب في ظل الواقعية الاشتراكية بسبب توقف حركة المضمون في صياغة التجارب، لذا فهو لا يلتزم مضموناً ثابتاً، وإنما يلتزم منهجاً ثابتاً تجاه حركة الموضوعات، والأشكال التي يجب أن تتناسب مع حركة الحياة، وتطوراتها المختلفة، ومن هنا يجب الاحتراس من الخلط بين المنهج والمضمون في طرح مفهوم الالتزام في دائرة الإسلامية.

^{٧٢} الكيلاني، نجيب. رحلتي إلى الأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٨.

^{٧٣} لأنّ توهم الحرية حينئذ قد يسوق الناقد إلى توجيه الأدب وجهات مهما تكن سعتها تعد تضييقاً على الأدب، مثل حصر حركته في دائرة الاهتمامات الاجتماعية وما أشبه ذلك.

^{٧٤} انظر:

- الكيلاني، نجيب. مدخل إلى الأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص ٨٠.

- الكيلاني، نجيب. تجريبي الذاتية في القصة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٤٨.

٢. أصداء المذاهب الغريبة:

وينطلق صالح آدم بيلو،^{٧٥} من المفهوم اللغوي للالتزام؛ "أي الاعتناق وبما أن المجتمع الإسلامي، هو مجتمع يقوم على العقيدة، والأخلاق أولاً، وقبل كل شيء، فمن البدهي أن يراعي الأديب المسلم هذه الحقيقة الأولية، والأساسية، ألا وهى العقيدة والأخلاق، وأن يضع في اعتباره كل حين، أنه أديب مسلم حقيقي من جانب، وأنه فرد يعيش في مجتمع مسلم من جانب آخر، فما يصح أن يخرج على القيم العليا التي آمن بها هو، وآمن بها مجتمعه، أو أن يجرحها ويؤذيها، وهذه من أدنى درجات الالتزام، أما الدرجة الأعلى، والأرقى، فهي أن يبرز هذه القيم العقدية، والخلقية السائدة في مجتمعه، ويثبت دعائمها، ويرفع ألويتها، ومن هنا فإن الأدب، إسلامياً، يعرض على هذين المقياسين، والمبدئين ليحكم له أو عليه، فيعطى الدرجة المناسبة له بمقدار قربه أو بعده، توافقه أو تخالفه معهما."^{٧٦}

إذن فهو ينطلق في تحديده لمعنى الالتزام من المعنى اللغوي إلى الغايات الوظيفية التي تتمثل عنده في درجتين الأولى أدنى؛ إذ الكف عن التجريح، والإيذاء للقيم التي آمن بها الفرد، وآمن بها المجتمع، والثانية أعلى؛ إذ توظيف الأدب لإبراز هذه القيم العقدية، والخلقية، لكنه يجعل ذلك كله انطلاقاً من المعنى اللغوي للالتزام؛ أي بكون ذلك كله منبثقاً عن الاعتناق الذاتي، وهو المعنى المنهجي للالتزام حينما يتوجه الاعتناق نحو المذهبية الإسلامية. غير أن توجيه الالتزام نحو الغايات الوظيفية للأدب يجعل منها أسساً ومنطلقات، ومن ثم تصاب التجربة بالجمود والتحجر والتقليدية، فالأولى توجيه الالتزام وجهته الصحيحة، نحو المذهبية الإسلامية، وعلى هذا فإن حصره للالتزام في دائرة الانتماء الذاتي، والاجتماعي، إلى مجموعة القيم العقدية، والخلقية المهيمنة، يجعل من الالتزام فرضاً من الخارج أكثر منه انبثاقاً ذاتياً، فضلاً عن أنه قاصر في الدلالة على المقصود من المفهوم الحقيقي للالتزام في دائرة الإسلامية، بوصفه استناداً في حركة

^{٧٥} صالح آدم بيلو، هو أحد الأدباء الإسلاميين، له كتاب: من قضايا الأدب الإسلامي، وقد أشار في هامشه ص ١٠٧ إلى ديوان شعري له صدر بالقاهرة ١٩٦٢م، كما أن له بعض المقالات التي نشرت في مجلة الأمة، ومجلة الأدب الإسلامي.

^{٧٦} بيلو، صالح آدم. من قضايا الأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص ٦٦، ٦٧ بتصرف.

الصياغة الأدبية إلى منظومة مفاهيم المذهبية الإسلامية المتكاملة التي يتشكل على أساسها موقفه من الوجود، وعلاقته بالأشياء، وغاياته التي يسعى إليها، ومن ثم فهي تشكل بالنسبة له قاعدة مرجعية، ثم إن التعبير عن حقائق العقيدة بالقيم العقدية، قد لا يعطيها صفة التكامل، إضافة إلى أن عطف القيم الخلقية عليها، وحصر المفهوم الالتزامي في مجموعة القيم العقدية، والخلقية، يفصل بين القاعدة، والفروع التي انبثقت عنها، وبذا يتضخم الفرع ليصبح أصلاً، الأمر الذي لا يخلو من تضيق وقصر وإكراه، وهنا يبدو المفهوم الإسلامي للمصطلح، كما لو كان صدى لدلالته في المذاهب الغربية، ويغدو النظر للمصطلح حينئذٍ من زاوية كونه فروضاً خارجية، وغايات وظيفية.

ومما لا شك فيه أن القيم الخلقية في الأدب تتحقق بمقتضى الارتباط المذهبي، فهي مظاهر لا حدود، وفروع لا جذور، ومن هنا لا يخلو الأدب من القيم الخلقية التي تتلون بطبيعة الارتباط المذهبي المحرك للتجربة، لذا فإن تحديد الالتزام بالقيم الخلقية غير مجسد إطلاقاً للهوية الإسلامية في بنية التجربة الأدبية؛ إذ إنه لكل ارتباط مذهبي أخلاقياته التي تتمخض عنه.

وقد بنى (بيلو) فكرته في التفريق بين درجتي الالتزام، على النحو المشار إليه، على قياس خاطئ؛ غد رأى فيما أسماه بالحد الأدنى للالتزام مشاهمة بحال الإنسان عقب دخوله في الإسلام مباشرة، فهو يكف عن السوء، ولكن لا يكتمل إسلامه إلا بعمل الصالحات من أجل البناء والتعمير، وهنا تتحقق له الإيجابية التي تقابل الحد الأعلى من الالتزام، حينما يوظف الأديب نتاجه الأدبي لصالح الأهداف الدينية.^{٧٧} والخطأ في القياس هنا قائم على إغفال المعنى الواضح للدخول في الإسلام دخولاً صحيحاً، وهو إسلام الحركة الإنسانية الشاملة لمنهج الله، والتوجه بمقاصده عبر مجالات مفتوحة من الجدوى والإيجابية، وبذا تنتفي السلبية تماماً على أعتاب الدخول في هذا الطريق، غير أن انفتاح المجالات، وتفاوت القدرات البشرية، يجعلان من العمل الإيماني درجات لا

^{٧٧} بيلو، صالح آدم. الالتزام في الأدب الإسلامي، مجلة الأدب الإسلامي، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، عدد ٢٢، ص ٢٢.

نهاية لها، يتفاوت فيها الناس، بمقدار الجهد الذاتي في الكدح، والتحقيق الإيماني، دون انتفاء الإيجابية في كل درجة من الدرجات، وبذا يترك المجال مفتوحاً للتفرد، والتنوع، والتسامي إلى ما لا نهاية، فيما يترتب على ذلك من تفاوت في النتيجة والجزاء.

ثم إنَّ ما يقصده الناقد بالحد الأدنى من الالتزام، وهو الكف عن التجريح والإيذاء للقيم العقديّة، وعدم الخروج عليها غير مفهوم، فهما دائرتان لا توسط بينهما، إما الخروج على القيم العقديّة، والتصادم معها بأي وجه، وليس لذلك مثقال ذرة من الالتزام، وإما التوافق مع هذه القيم، وعدم الخروج عليها، وحينئذ يتحقق المعنى المنهجي للالتزام في دائرة الإسلامية، بوصفه توافقاً بين النتاج الأدبي، وأسس المذهبية الإسلامية.^{٧٨}

وليس بعد ذلك من منزلة للعلو في الالتزام، وما أسماه الناقد بالدرجة الأعلى في الالتزام، وهو توظيف الأدب في مجال الدعوة الإسلامية، فإن ذلك بالطبع ثمرة عفوية للالتزام بمعناه المنهجي، وغاية من غاياته، ومن ثم فلا مسوّغ لاعتمادها حداً في الالتزام؛ لأنّها في حقيقتها ليست كذلك، إضافة إلى حصول تحققها على صفحة التجربة الأدبية، بمقتضى ارتباط هذه التجربة بأسس المذهبية الإسلامية، لذا فإن التأكيد على تحققها من خلال مفهوم الالتزام، ربما يضر بالمفهوم، والتطبيق، أكثر مما يفيد.

٣. تفرّيع دلالة المصطلح:

تمتد هذه الأصداء، لدلالة المصطلح في المذاهب الغربية، في أجواء النقد الإسلامي؛ إذ يتفرّع الالتزام لدى محمد إقبال عروي، إلى شعب أربع، هي تقريباً حصاد التوفيق بين اتجاهات متعددة حول مفهوم الالتزام في دائرة الإسلامية وخارجها، فهو عنده التزام رؤيوي؛ أي ملتزم بالرؤية الإسلامية تجاه الكون، والحياة، والإنسان، داخلي

^{٧٨} يجب الحذر من إطلاق القول هنا، فمما لا شك فيه أن التوافق الجزئي مع المذهبية الإسلامية لا يدخل دائرة الالتزام، وإنما الذي نقصده هنا هو التوافق الكلي؛ أي أن التجربة الأدبية في إطارها الكلي الذي يوازي العمر الأدبي للبداع، فحينئذ تنصرف الصفة إليه، ويكون أدبياً ملتزماً، أما الموافقات العارضة فهي مقبولة في حدودها الجزئية دون أن تدخل بصاحبها دائرة الالتزام.

ملتزم بالاهتمامات الذاتية، أدبي أي ملتزم تجاه القيم الأدبية، خارجي؛ أي ملتزم بقضايا المجتمع.^{٧٩} ولا نرى ثمة ضرورة للتشعب؛ لأن الشعبة الثانية متحققة بمقتضى حتمية الذاتية في تشكيل التجارب الأدبية، بل إن الذاتية هي جوهر التجربة الأدبية، والموضوعية فيها لا تتجاوز الشكل بحال من الأحوال، ثم إن القيم الجمالية، والقضايا الاجتماعية، كليهما تتجسدان في بنية التجربة، وتحققان بمقتضى خضوع النص الأدبي للقواعد الجمالية في الأدب، والتعلق الضروري بين الفرد والمجتمع، على أساس من عضوية العلاقة بينهما في المذهبية الإسلامية، ثم إن التشعب على هذا النحو، قد يجعل، على المدى الطويل، هذه القيم الجمالية والاجتماعية في اتجاه، والأسس المذهبية في اتجاه آخر، وبذا تنفصل الصياغة الأدبية عن مرجعيتها الإسلامية، وعلى هذا فلا يبقى من هذه الشَّعب إلا الأولى التي عنها الناقد بالالتزام الرؤيوي، التي يتحقق بها المفهوم المنهجي للالتزام.

ويتفق معه في هذا التشعب كثير من النقاد على اختلافهم في الناحية الكمية؛ إذ يراه الشنطي^{٨٠} في شعبتين، تتجه الأولى منهما تجاه المذهبية الإسلامية، وتنحصر الثانية في القيم الجمالية والأدبية،^{٨١} ويراه إبراهيم عوضين^{٨٢} في ثلاثة عناصر: لغوي أسلوبي، وذاتي، وجماعي، أي ملتزم بالاهتمامات الذاتية إضافة إلى قوانين الجماعة التي تضمنه،^{٨٣} وهو يربط ذلك كله بالاستجابة الفطرية العفوية للمذهبية الإسلامية، فهو طاعة لكل

^{٧٩} عروى، محمد إقبال. اختيار الحضارات في الأدب الإسلامي، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة: عدد ٤٤، السنة ١١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ٦٩.

^{٨٠} محمد صالح الشنطي: ناقد إسلامي له مشاركات جادة على صفحات المجلات الإسلامية مثل المجلة العربية، ومجلة الأدب الإسلامي، ومن مؤلفاته الأدبية: القصيدة المهاجرة.

^{٨١} الشنطي، محمد صالح. القصيدة الإسلامية بين الالتزام الفكري والالتزام الفني، مجلة الأدب الإسلامي، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، عدد ٢، ص ١٣.

^{٨٢} أستاذ في كلية اللغة العربية بالمنصورة جامعة الأزهر.

^{٨٣} عوضين، إبراهيم. مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، القاهرة: مطبعة السعادة، ط ١، ١٤٠١هـ-١٩٩٠م، ص ٤٨.

ما يأمر به الإسلام عن إيمان واقتناع، ويقين،^{٨٤} ثم يشير إلى قيمة الالتزام في إنقاذ الأديب، والتجربة معاً من شرك الازدواجية.^{٨٥}

رابعاً: تلبس المصطلح واختلاط المفاهيم

ومن هذا المفهوم المنهجي نفسه ينطلق محمد حسن بريغش،^{٨٦} إلا أنه يعبر تعبيرات، ويضيف إضافات فيها كثير من الخلط، والتلبس، والإرباك، فهو ابتداء يشير إلى قِدم الالتزام، ومصاحبتة للإنسان منذ بداية رحلته على الأرض، ثم ينتقل إلى بيان صفة الأديب المسلم الذي يرى أن هويته لا تتحدد إلا من خلال هذه الصفة (المسلم)، وأنه لا يدخل في إطار الأدب الإسلامي إلا من هذا المدخل؛ لأن صفة الأديب يشترك فيها مع غيره... ولكن الأديب المسلم لا يكتسب هذه الصفة إلا إذا كان مؤمناً حقاً، ومسلماً صادقاً، يلتزم شرع الله فكراً، وسلوكاً، واعتقاداً، ولا فرق في اكتساب صفة الإيمان هذه بين المسلم الأديب، وغير الأديب، فإذا كانت الصفة لازمة للمسلم العادي؛ فهي أكثر لزوماً، وأشد ضرورة، ووضوحاً للأديب؛ لأنه سيكون في موضع التأثير والتوجيه والريادة، ومن ثم فلا يقبل إطلاق الصفة على رجل لم يلتزم بالإسلام في سلوكه العملي، ونشاطه الحيوي الشامل.^{٨٧}

وبذا يصل بريغش إلى مفهومه المنهجي، فما دام المسلم مسؤولاً عن مطابقة نشاطه الشامل للإسلامية، وخضوعه لها، وانثاقه عنها، وما دامت "المسؤولية عند الله على قدر الطاقة والمعرفة، فإن مسؤولية الأديب جد كبيرة، وحسابه عند الله عظيم،

^{٨٤} المرجع السابق، ص ٤٧.

^{٨٥} المرجع السابق، ص ٤٥.

^{٨٦} محمد حسن بريغش . أديب إسلامي، وعضو رابطة الأدب الإسلامي، له في مجال النقد الإسلامي ما يلي: الأدب الإسلامي سماته وأصوله، في الأدب الإسلامي المعاصر دراسة وتطبيق، دراسات في القصة الإسلامية المعاصرة، القصة الإسلامية دراسة وتطبيق . وكلها صادر عن مؤسسة الرسالة، إضافة إلى كتب متعددة في مجال التربية الإسلامية منها: نحو منهج تربوي أصيل، التربية مستقبل الأمة، الصحة الإسلامية وآفاق التربية . وكلها صادر عن مؤسسة الرسالة

^{٨٧} بريغش، محمد حسن. في الأدب الإسلامي المعاصر، الأردن: مكتبة المنار، ط ٢، ١٤٠٥-١٩٨٥ م، ص ٣٧،

وشديد؛ لأنه موضع الريادة، والتوجيه، ومناطق القدوة، والمثل، لما أعطاه الله من موهبة، وفكر، وإحساس وقدرة، ولهذا فليس مقبولاً منه أن يكون سلوكه، وفكره مناقضاً لما يعتقد ﴿مَاجَعَلَّ اللَّهُ لِلرَّجُلِ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ﴾ (الأحزاب: ٤) والتزامه لا يقاس بالمقاييس التي وضعتها المذاهب المادية، بل لا بد وأن ينبع الالتزام من العقيدة أولاً، ومن شرع الله عموماً.^{٨٨} فهو إذن يعني بالالتزام، ارتباط التجربة في صياغتها بالعقيدة الإسلامية، غير أنه من خلال تعبيره يفصل بين العقيدة والشرع. والسؤال الذي يترتب على ذلك هو هل تتوافق التجربة في صياغتها مع العقيدة ثم تصطدم بالشرع؟ ولما كان ذلك يقع في حد الاستحالة؛ لأن الشرع منبثق عن العقيدة، وموصول بها، فهي أشبه بالجذر ذي الامتدادات المختلفة لتغطية أبعاد الحياة كافة؛ إذ يأخذ كل جانب منها ما يستظل به، فيكون هناك جانب للتشريع، وجانب للتربية، وجانب للآداب والفنون، وجانب للاجتماع، وجانب للسياسة والاقتصاد... إلى أن تكتمل دائرة التجربة الحوية للإنسان، فتكون حياته في جزئياتها، وعمومها في إطار إسلامي، وتكون كل الجوانب على اتصال بالعقيدة التي هي منبع كل ذلك، ولهذا يصبح من اللغو أن نضيف لفظ الشرع إلى لفظ العقيدة^{٨٩} في تحديد إطار التزام التجربة الأدبية؛ لأن الموافقة بين التجربة، والحدود الشرعية حاصلة بمقتضى موافقة التجربة للعقيدة الإسلامية.

وهو لا يكفي بموافقة التجربة للعقيدة، والشرع، وإنما يضيف موافقة أخرى تتمثل في موافقة التجربة الأدبية لسلوك الأديب في حياته العملية، ومن ثم يتساءل على جهة الإنكار: "كيف نقبل من المسلم أن يتناقض مع نفسه، يتكلم عن الإسلام وهو بعيد عن الإسلام؟".^{٩٠} ولهذا فهو يرى أن "الذين يحصرون الالتزام في الأدب الإسلامي في التعبير عن قضايا المسلمين، والتحدث ضمن المفاهيم الإسلامية، أو يحرصون على انسجام الأثر الأدبي مع التصور الإسلامي، إن هؤلاء مخطئون، وواهمون، وفي هذا

^{٨٨} المرجع السابق، ص ٣٨ بتصرف.

^{٨٩} لو كان هذا في مجال ضبط السلوك لكان معقولاً؛ إذ يتم في حالة غياب الوعي انفصال السلوك عن المعتقد، أما في ميدان تحديد انضباط التجربة الأدبية، فإن الأمر ينبغي أن ينصب على ربط التجربة بمتطلبات المذهبية، وبالطبع فإن هذه المتطلبات لا يمكن أن تقود إلى مخالفة شرعية.

^{٩٠} بريغش، محمد حسن. في الأدب الإسلامي المعاصر، مرجع سابق، ص ٣٩.

الرأي يفتحون باباً خطراً، باباً أقرب ما يكون للنفاق، وتخريب ضمائر المسلمين، وضرب الإسلام من الداخل، إنهم يفرغون الإسلام من روحه، هذه الروح التي حولت النصوص إلى واقع عملي، يعيشه الناس في كل شؤونهم، ومن هنا جاء خلود كتاب الله عز وجل، فإذا كان المسلم الحقيقي أكثر الناس التزاماً بما يعتقد فكراً، واعتقاداً، وسلوكاً، فإن الأديب المسلم ينبغي أن يكون أكثر التزاماً بما يعتقد فكراً، واعتقاداً، وسلوكاً.^{٩١}

وعلى الرغم من أن ذلك صحيح في جوهره في المجال التربوي، إلا أنه يخرج بالعملية النقدية عن مجالها تماماً، فليس من شأن الناقد أن يطابق بين التجربة الأدبية، والسلوك العملي للأديب في حياته الواقعية، ولا هو، إن أراد ذلك، قادر عليه، ثم لماذا تسوء نية الناقد المسلم بمن تنضبط تجاربهم الأدبية بمقتضيات المنهجية الإسلامية، فيفترض مخالفة ذلك لواقعهم؟، ثم إن ذلك يقود إلى أخطاء فادحة في الحكم النقدي؛ إذ إننا حينما نجعل السلوك العملي للأديب هو مقياس التزامه في صياغة التجربة الأدبية، فماذا حينما يتوافق سلوكه العملي مع الإسلامية، ثم ينصرف تعبيره عن ذلك، هل نعد هذا التعبير إسلامياً؟، ثم ماذا حينما يجيء نتاجه الأدبي وفق متطلبات المذهبية الإسلامية، ثم تقع بعض الانحرافات في حياته الواقعية، فهل نستريح إلى إبعاد هذا النتاج الأدبي عن دائرة الإسلامية؟ وما هو المسوَّغ؟ ثم إننا بذلك نكون قد ألغينا الأصل في انطلاقة التجربة الأدبية، وهو المذهبية الإسلامية، ولذا فإن الركون إلى الواقع في قياس أبعاد إسلامية التجربة الأدبية يقود ضمناً إلى إلغاء المعيار الأصلي، وهو المرجعية الإسلامية، أما حينما تكون المرجعية الإسلامية هي المعيار فإن ذلك لا يلغى الواقع، شريطة أن يتمثل في النص؛ لأن الأديب مطالب بالصدق، ومن ثم يعبر بطريقة أدبية وفنية عن الواقع، دون أن يكون الواقع أساساً للمعايرة النقدية؛ لأن الصياغة الأدبية سوف تتخذ من هذا الواقع، واقعاً فنياً له منطقته الخاص، بسبب من خصوصية الوسائل والأدوات التي يتم بها التعبير عن الواقع، ومن ثم فهو يغيّر الواقع دون أن يخرج عن مقتضيات الصدق، بمفهومه الشامل، الذي يشمل الواقع والفن في آن واحد.

وعلى هذا فإن بريغش يتحدث عن الالتزام بثلاثة معان: التعبير عن قضايا المسلمين، والتحدث ضمن المفاهيم الإسلامية، والانسجام مع التصور الإسلامي، والأخير منها هو المفهوم المعتمد للالتزام عند سابقه؛ أي الانسجام مع متطلبات المذهبية الإسلامية، إلا أن بريغش يقيداً جميعاً (المفاهيم الثلاثة) بالالتزام السلوكي، فكأنه بذلك يلغى تحكيم مقتضيات المذهبية الإسلامية لصالح تحكيم السلوك.^{٩٢} ثم إن ذلك يقود إلى تبعض التجربة الأدبية التي تتوحد بانسجامها مع المذهبية الإسلامية، وعلى أساس من الفهم التبعضي يقول بريغش: "فالأدب الإسلامي التزام بالإسلام، والتزام بالكلمة، والتزام بالعقيدة، والتزام بالسلوك".^{٩٣} ومع أن ذلك كله متحقق بمقتضى الالتزام بالمذهبية الإسلامية، إلا أن هذا التشعب يقود إلى تمزيق التجربة، ويجعل من السلوك الواقعي خارج النص أساساً في قياس المستوى الالتزامي، بينما الأساس الوحيد للالتزام التجربة هو التوافق مع متطلبات المذهبية الإسلامية، ومن ثم يتحقق الالتزام في سائر مفردات التجربة: الفكر، والوجدان، والتعبير، والتصوير، وكل ما من شأنه أن يكون عنصراً في بنية التجربة الأدبية التي تختلف دون شك عن التجربة الواقعية، لا من حيث ارتباطها بالمذهبية الإسلامية، ولكن من حيث طبيعتها، ولهذا فهي خارج إطار عمل الناقد، ثم إننا لا نعرف مقصود الناقد بالالتزام الكلمة، إلا إذا كان يقصد القيمة الجمالية للكلمة، وذلك بالطبع كامن في الحدّ الأدبي، وما لم تكن التجربة متحققة بالشرط الجمالي فهي خارج إطار الأدب، ولذا فلا يصح الحديث عن العنصر الجمالي بوصفه شعبة من شعب الالتزام، فهو كامن في طبيعة التجربة الأدبية، والحديث عنه إنما يكون في هذا الإطار.

وعلى نحو ما فعل بريغش، يحاول عدنان النحوي^{٩٤} أن يربط الالتزام الأدبي في دائرة الإسلامية بالالتزام السلوكي،^{٩٥} فيقيد الأول بالثاني، وهو خلط بين مجالين

^{٩٢} هل يمكن أن نتخذ من الانحرافات السلوكية عند أحمد شوقي إن صدق حافظ إبراهيم فيما يرويه عنه، أساساً لهدم الجانب الإسلامي في شعر شوقي؟.

^{٩٣} بريغش، محمد حسن. في الأدب الإسلامي المعاصر، مرجع سابق، ص ٤.

^{٩٤} أديب إسلامي بارز، من مؤلفاته الأدبية: الأدب الإسلامي إنسانيته وعلميته، تقوم الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها، الأرض المباركة (ديوان شعر)، وموكب النور (ديوان شعر)، وغيرها الكثير.

مختلفين بطبيعتهما، وإن اتفقا في غايتهما، فالالتزام الأخلاقي، وإن كان مطلوباً من الأديب المسلم، وواجباً، فليس من شأن الناقد كشف مداه، وهو حينما يقيس إيجابية القيم الأخلاقية في بنية التجربة الأدبية، فإنما يقيسها بالمذهبية الإسلامية، ومدى اتفاقها معها، أو اختلافها عنها، ولا يقيسها بالواقع السلوكي للأديب؛ لأن مقتضى ذلك أن يجعل من واقع الفرد مرجعية، وهو خطأ لا يحتاج إلى بيان.

خاتمة:

من الملحوظ من خلال هذا العرض لبعض مجالات الاستخدام لمصطلح الالتزام، وشرح محتواه في دائرة الإسلامية، نرى أن النقاد الإسلاميين جميعاً قد أكدوا أن الالتزام فطرة إنسانية ملازمة للإنسان في أحواله كافة، وإن اختلفت الأشكال، والمفاهيم، وعلى هذا فإن المصطلح (ملتزم) ينصرف إلى الأديب، لا إلى الأدب، ولا يمكن للأديب المسلم أن يخرج من إطار هذا التعميم. إلا أن للمصطلح عنده مفهومه المتميز، وأبعاده الخاصة، ومن ثم فإن إقامة سياج حاد بينه، وبين المصطلح بحجة أنه مصطلح مستعار، هو خروج حاد على منطق الواقع، ومصادمة لحقائقه المقررة.

وكذلك شدد النقاد الإسلاميون على أن الالتزام بمفهومه الإسلامي نابع من ذات الأديب ومعتقداته الخاصة، وليس مفروضاً عليه من خارج الذات، ومن ثم فهو لا يُحدّد من حريته، ولا يقلل من إمكان تحليقه في الفضاء الرحيب للتجربة البشرية على اتساعها في جميع ميادين الحياة، والمجال مفتوح دائماً أمام الذات الأدبية للتعبير عن كل ما يمس الحياة الخاصة، والعامّة لهذه الذات، ودائرة الصياغة الأدبية مفتوحة أمام الأديب المسلم للحركة مع التاريخ والإنسان، تغطية لأبعاد وجوده على الأرض. لذا فإن مصطلح الالتزام ينطوي على قدر هائل من التشكل، وفق مبدأ الثبات، والحركة في آن واحد، أي الحركة في إطار ثابت؛ لأنه التزام تجاه المبادئ الإسلامية الثابتة في تصور

^{٩٥} النحوي، عدنان على رضا. الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته، السعودية: دار النحوي، ط ١، ١٤٠٧هـ -

الإنسان، والكون، والحياة، لكنه لا يمنع من ارتياد آفاق الحياة في جميع جوانبها على أن يتم ذلك في ضوء تلك المبادئ الثابتة.

والالتزام بهذا المعنى يمثل توافقاً مع الفطرة من خلال موافقة النظرة الإسلامية للمطالب الفطرية الكامنة في صميم البنية الإنسانية وأعماقها، تلك التي فُطرت على التجاوب مع تلك المبادئ الإسلامية، ومتطلباتها في ممارسة النشاط البشري في جميع مجالات الحياة، الأمر الذي يعود عملياً على التجربة الأدبية بالتماسك، وعدم الازدواج، والتناقض. فضلاً عن ذلك، فإن في النفس البشرية ميل فطري نـزاع إلى الالتزام، والأديب المسلم حين يدعّن لمطالب المبادئ الثابتة تجاه الحياة، فإنه يليى هواتف هذا النزوع الفطري، ومن ثم يستشعر الحرية والانطلاق دون أدنى حيف على قدراته الفنية، وإمكاناته، ومواهبه الخاصة في التشكيل، والإبداع.

وعلى الرغم من التأثيرات السلبية للمصطلح، تلك التي أشرنا إليها، التي ظهرت من خلال عرض مجالات استخدام المصطلح، فإن له دوره الضروري في المعيار النقدي لمعرفة أبعاد الاستجابة في بناء التجربة الأدبية، على المستوى الفكري والجمالي، للأسس المذهبية المحركة للتجربة، أي الأسس الإسلامية؛ إذ إن هذه الاستجابة، فيما ثبت، آفاقاً غير محدودة، فضلاً عن أنها متفاوتة بين الأدباء، بقدر تفاوتهم في الارتباط بالمذهبية الإسلامية، واعتمادها منهجاً، والوعي بمتطلبات هذا المنهج على مستوى التفكير، والتعبير، والوجدان، ومن ثم فإن المصطلح ضرورة للتأشير النقدي على هذه الأبعاد، وكشفها أمام وعي المتلقي، وإثارة الانتباه إلى ما يمكن أن يكون تجاوزاً لمتطلبات المذهبية الإسلامية المحركة للتجربة، والموجهة لها، وعلى هذا فإن للمصطلح أبعاداً عملية وغائية. ومن ثم لا يمكن الاستغناء عن مصطلح الالتزام، مع ضرورة الأخذ بما يذهب إليه الشيخ أبو الحسن الندوي^{٩٦} من أن هذا المصطلح لا ينبغي أن يؤخذ بجميع شروطه ومعانيه،^{٩٧} التي لا تخلو من تأثيرات، غير محمودة، بمفهومه الغربي، بل إننا

^{٩٦} كان رئيساً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، ومقرها الأساسي لكنهو - الهند، وله باع واسع في خدمة الدعوة الإسلامية، والأدب العربي، من مؤلفاته الأدبية: نظرات في الأدب، من روائع إقبال. توفي عام ١٤٢٠هـ.

^{٩٧} الندوي، أبو الحسن. مجلة الأدب الإسلامي، عدد ٢٨، ص ٢٨ وما بعدها. (حوار معه).

نوجب تفريغ المصطلح من هذا المضمون (الإيديولوجي) الذي تلبّس به خارج دائرة الإسلامية، مع تعبئته في الوقت نفسه بالمضمون الإسلامي المتمثل في كونه منهجاً يحكم حركة التجربة في تمخضها، ويجعلها تستجيب في بنائها لأسس المذهبية الإسلامية، ثم تأكيد ذلك في الوعي النقدي بعد عزله عن التأثيرات المشار إليها، وبذلك تتمثل ضرورته التي لا يقدح فيها كون المصطلح وافداً؛ إذ إن ذلك مما تقتضيه عمومية الخصائص الفطرية المشتركة بين بني البشر أجمعين. لكن توجيه هذه الخصائص وتكييفها، يتم بكيفيات متباينة بتباين المعتقدات، والمكونات العقلية، ومن هنا فليس ثمة ما يمنع من تكييف هذه الخاصية الفطرية وفق متطلبات المذهبية الإسلامية، بل إنها ضرورة حتمية، ومن خلف ذلك يتمخض المضمون الإسلامي الخاص للمصطلح على نحو ما مر، وبخاصة أن الدلالة اللغوية للمصطلح لا ترفض المضمون الإسلامي بل تؤازره، وتمنحه تميزه وخصوصيته.

إضافة إلى الضرورات العملية لمصطلح الالتزام في ميدان النقد-تلك التي شدد النقاد على إبرازها في دائرة التقييم النقدي، وبما يتم تأطير الأدباء الذين استطاعوا ضبط تجربتهم، وإخضاعها كاملاً لمتطلبات المذهبية الإسلامية في الصياغة الأدبية، ثم كشف أبعاد الاستجابة الأدبية، وكيفياتها، وغاياتها، للمذهبية الإسلامية- فإنه يتجلى على صفحة التجربة وبنيتها حين يهبها الانضباط، ويصونها من ازدواج، والتمزق.